كتابة التاريخ بين فن السرد والعلوم الدقيقة

فرانسواز ريفاز / ت: باتسي جمال الدين

– تساءل أحدهم عن ماهية "السرد الجيد"، موضحاً أنه يجب ذكر الأشياء كما هي دون تصنع [...].

– السرد الجيد يكمن في جذب اهتمام المستمعين، ولا يمكن أن ينجح هذا الأمر دون اللجوء إلى قدر قليل من التصنع... القدر الكافي الذي يصير معه السرد أحد ألوان الفنون.

(خورخي سمبرون: الكتابة أو الحياة)

يتمثل بطبيعة الحال دور الكتابة التاريخية في "وصف الأشياء كما هي"، أو بالأحرى كما كانت، ولابد من عرض الأمور على حقيقتها، على خلاف الكتابة الأدبية التي تتخلص تماماً من طوق الحقيقة، وتستطيع إثارة الخيال بواسطة الصنعة الفنية. إلا أن ما يجمع هذين النوعين من الممارسة الخطابية هو إمكانية اللجوء إلى سرد الأحداث. وكلنا نعلم أن السرد الأدبي قد تعرض بشكل منتظم للعديد من حالات التراجع، وهو ما يصدق كذلك على الكتابة التاريخية. ومع أننا نتفق حالياً– في الأوساط الفرانكوفونية والأنجلوساكسونية على حد سواء– على أن التاريخ هو نوع من أنواع السرد، فإننا لم نكن لنعترف بذلك فيما مضى. وحينما شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر صياغة التاريخ بوصفه علما قائما بذاته، بدأ التشكيك بشدة في حقيقة دور سرد الأحداث. وثار آنذاك جدل شديد بين أنصار منهج "شرح التاريخ" من جهة، وأنصار "تأويل التاريخ" من جهة أخرى. وصار لزاماً على المؤرخ الاختيار بين طريقتين لمعالجة الواقع التاريخي: تتمثل إحداهما في شرح التاريخ بواسطة منهج العلوم الدقيقة التي تستند إلى تحليل الأسباب وصياغة القوانين؛ بينما تتمثل الطريقة الأخرى في فهم السلوكيات الإنسانية، ومعرفة الدوافع النفسية والعوامل التي أثرت في فاعلي التاريخ، وصياغة الحقائق التاريخية في قالب قصصي.

سوف نشرع أولاً في طرح الجدل الشائع حول الاختيار بين "الشرح والتأويل"، ثم سنعمل على توضيح كيفية شرح التاريخ بواسطة مثال ملموس على الكتابة التاريخية، ألا وهو عرض الشرح الذي ساقه المؤرخ إرنست لابروس Ernest Labrousse عام ١٩٤٨ لمختلف الثورات الفرنسية (١٧٨٩– ١٨٣٠– ١٨٤٨)، وسنرى كيف توصَّل هذا المؤرخ إلى صياغة تاريخ الإنسان دون الإنسان ذاته؛ أي عرض التاريخ دون اللجوء إلى سرد الأحداث، حيث حرص بشدة على "استبعاد

التحليل النفسي" من الواقع التاريخي. ويتيح مثل هذا الاختيار الإبيستمولوجي فتح باب النقاش حول وظيفة السرد في كتابة التاريخ.

١. "الشرح" و"التأويل": طريقتان لإجلاء الحقائق

أكد الفيلسوف فيلهلم ديلتاي Wilhelm Dilthey الحقيقة الآتية: "يمكننا شرح الأشياء كلها، ولا يسعنا سوى فهم الإنسان". إن مثل هذا التقابل بين "الشرح" و"الفهم" يقودنا نحو الاختلاف الذي يفصل بين عملية "الشرح" التي تتبناها علوم الطبيعة سعياً وراء معرفة الأسباب المختلفة والتحقق من صحة القوانين من جهة، وعملية "التأويل" التي تتبناها العلوم النفسية بغية الوقوف على معنى السلوكيات الإنسانية، والسعي نحو اكتشاف الدوافع النفسية والنوايا الحقيقية من جهة أخرى. والتمييز بين هذين المنهجين هو أحد نواتج الفلسفة الألمانية خلال القرن التاسع عشر؛ حيث كان بمثابة حل نظري للمشكلة التي نجمت عن وضع العلوم الإنسانية إبان تلك الفترة. لذا، يتعين علينا الإجابة عن التساؤل الآتي: هل تشكل العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية كياناً يتسم بالتجانس والتواصل، أم إن السلوكيات الإنسانية تستلزم طريقة خاصة في معالجتها بسبب اختلاف النوايا التي تتوارى خلفها؟ في ظل هذا الجدل، صار كل من مصطلحَي "الشرح" و"التأويل" بمثابة الشعار الذي يحمله أنصار كل فريق على حدة: "يشير مصطلح **الشرح** إلى فرضية عدم الاختلاف ووجود تواصل إبيستمولوجي بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، بينما ينطوي مصطلح **التأويل** على ضرورة عدم اختزال العلوم الإنسانية ومنحها الخصوصية التي تستحقها" (Ricœur: 161). وفي كتابه الذي يحمل عنوان "مقدمة في علوم النفس" *Introduction aux sciences de l'esprit* (١٨٨٣)، دعا ديلتاي إلى الفصل الإبيستمولوجي بين "العلوم النفسية" أو "العلوم الإنسانية" (Geisteswissenschaften) من جهة، و"العلوم الطبيعية" (Naturwissenschaften) من جهة أخرى، لاسيما الفيزياء والكيمياء، بسبب وجود اختلاف أنطولوجي جذري بين هذين الطرفين. وقد طرح مجدداً المؤرخ بروست Prost هذه الفرضية في كتابه "اثنا عشر درساً في التاريخ" *Douze leçons sur l'histoire* (١٩٩٦)، وعمد إلى توضيحها على النحو الآتي:

> تساعد العلوم الطبيعية على شرح الأشياء والحقائق المادية، بينما تساعد العلوم النفسية على فهم الإنسان وسلوكياته المختلفة. والشرح هو منهج علمي بحت؛ لأنه يسعى وراء معرفة الأسباب وإثبات صحة القوانين. كما أنه يتسم بالحتمية؛ لأن الأسباب نفسها لابد أن تؤدي دوماً إلى النتائج ذاتها، وهذا ما تؤكده القوانين المختلفة، كما هو الحال بالنسبة لالتقاء الحمض والأكسيد الذي ينتج عنه دوماً أحد الأملاح، أو التقاء الماء والحرارة.
>
> ويبدو لنا جلياً أنه لا يمكن استخدام مثل هذه المعالجة على صعيد العلوم الإنسانية؛ لأن السلوكيات البشرية تستمد معقوليتها من كونها أفعالاً عقلية أو على الأقل مُتعمدة. فالفعل الإنساني هو اختيار لوسيلة ما من أجل تحقيق غاية محددة. ولا يمكن شرح هذا الفعل في ظل الأسباب والقوانين المختلفة، بل يمكن اللجوء إلى التأويل من أجل فهمه على النحو الصحيح. (Prost 1996 : 151)

وخلاصة القول إنه من خلال طرح تلك المعالجة الخاصة، يهدف مفهوم التأويل إلى منح العلوم الإنسانية قدراً من الاحترام يماثل ذلك الذي تتمتع به العلوم الطبيعية.

إلا أن الجدل الذي دار حول "الشرح" و"التأويل" قد اشتد بصفة خاصة في مجال التاريخ الذي شهد تصارع فريقين مختلفين: حيث ساند أحدهما منهج "التأويل" لدى علماء مثل ريمون أرون Raymond Aron وهنري-إيريني مارو Henri-Irénée Marrou، بينما ساند منهج "الشرح" مؤرخون مثل فرنان برودل Fernand Braudel وإرنست لابروس، غير أننا لم نشر هنا سوى لعدد صغير من أشهر كُتّاب التاريخ الفرنسي. فقد تناول أرون تلك المقابلة بين منهجي "الشرح/التأويل" في أطروحته التي تحمل عنوان "مقدمة في فلسفة التاريخ" *Introduction à la philosophie de l'histoire* (١٩٣٨)، حيث اعتبر التاريخ بمثابة إعادة تشكيل لأحداث يتعين على المؤرخ الاشتراك فيها، وترك للعلوم الطبيعية ملاحظة الوقائع بشكل موضوعي ومنفصل، والبحث عن مجموعة الأسباب التي تؤدي إلى حدوثها، ودعا إلى جمع العلامات الخارجية التي يمكن أن تساعد على استنباط العوامل النفسية الداخلية، و"إدخال مشاعر" المؤرخ في حيوات غريبة عنه. ويستند هذا الافتراض إلى كون المؤرخ لا يستطيع فهم حياة الآخرين سوى في إطار نقل تجربته الخاصة؛ أي إن عملية الفهم لا تتم سوى بواسطة ممارساته الاجتماعية الخاصة. وقد أكد مارو من جانبه أن الإنسان يفهم تجربة الآخر إذا ما تشابهت مع تجربته الذاتية. وعملية الفهم تستلزم بالتالي وجود أحد أشكال التقارب الذي ينعكس من خلال مشاعر "التعاطف":

> لا يمكن أن تتحقق عملية الفهم دون هذا الشعور الذي يجعلنا نتواصل مع الآخرين؛ ويمكّننا من استرجاع مشاعرهم وأفكارهم في ظل الأجواء التي أحاطت بحياتهم، أي أننا نتوحد شعورياً مع الآخر. وكلمة تعاطف لا تكفي وحدها للتعبير عن العلاقة التي تربط بين المؤرخ وموضوعه؛ حيث يجب أن تنعقد بينهما علاقة صداقة إذا ما كان المؤرخ يرغب حقاً في الفهم. وقد قال القديس أوغسط ين عبارة جميلة ذكر فيها أنه "لا يمكن معرفة شخص ما دون كسب صداقت ه". (Marrou 1954 : 98)

ويعتقد معارضو الفلسفة الوضعية من أمثال أرون ومارو أن المنهج التاريخي ليس سوى امتداد لفهم الآخرين بصورة "طبيعية"؛ فقد أوضحوا أنه يمكن فهم الأفعال الإنسانية التي تتحكم فيها النوايا والمخططات والدوافع من خلال إحدى عمليات الاستبطان التي تشبه تلك التي نستخدمها في فهم نوايا الآخر ودوافعه خلال الحياة اليومية. وإننا هنا بصدد الاستدلال القياسي؛ حيث يتعين على المؤرخ تطبيق وسائل الشرح الحالية (بالمعنى المعتاد) على أحداث الماضي، بيد أنها تستمد براهينها من تجربته الاجتماعية اليومية. وهذا النوع من الاستدلال ينطوي بالطبع على فرضية التواصل بين الإنسان على مر العصور المختلفة[1]. لكن كيف يمكن للمؤرخ أن يعمل على أرض الواقع من أجل فهم إحدى الظواهر التاريخية؟ لقد أوضح بروست منهج "التأويل" في كتابه "اثنا عشر درساً في التاريخ":

> من الناحية المنطقية، لا يختلف شرح المؤرخ عن شرح رجل الشارع، وطريقة الاستدلال التي تم استخدامها في شرح الثورة الفرنسية لا تختلف منطقياً عن طريقة رجل الشارع في شرح حادثة مرور أو نتائج الانتخابات. ويطبق [المؤرخ] على أحداث الماضي أساليب الشرح التي مكنته من فهم الأوضاع والأحداث التي عايشها بنفسه. وحينما يقول المؤرخ إن زيادة الضرائب في عهد لويس الرابع عشر قد أفقدته شعبيته، فإن المُكلَّف بدفع الضرائب هو الذي يتحدث في هذا السياق...فما هو الأساس الذي يستند إليه المؤرخ عند قبول ـ أو رفض ـ التفسيرات التي تطرحها المصادر المتوفرة لديه عدا تجربته الحياتية التي علّمته أن بعض الأحداث تقع دون بعضها الآخر؟ (Prost 1996 : 158-159)

وتجدر الإشارة هنا إلى ضرورة عدم قصر عملية "التأويل" على البحث عن الدوافع والنوايا التي تتحكم في الأفعال الإنسانية؛ لأنها تشمل بصفة عامة فهم الوسط الاجتماعي والتاريخي، وإن لم يكن للإنسان تأثير واضح على مجريات الأحداث، حيث يبدو وكأنه يكتفي بالتكيف مع الواقع:

يمكننا في الواقع الوقوف على خلاصة التحليل النفسي، والسير على نهج ماكس فيبر Max Weber بشأن التمييز بين الأفعال الذاتية التي تحكمها نوايا الأشخاص ومعتقداتهم بغية تحقيق أهدافهم أو أحلامهم الخاصة بغض النظر عن الواقع (العقلانية الذاتية المرهونة بتحقيق غاية محددة) من جهة، والأفعال الحصيفة التي تتوافق مع الوضع القائم (العقلانية الموضوعية المرهونة بتحقيق العدل). وهناك العديد من القصص شديدة الإنسانية التي لم يكن للنوايا فيها سوى دور محدود للغاية بسبب قلة مساحة التصرف البشري، مثل أزمة القمح التي نجمت عن تلف المحاصيل، وأدت إلى ارتفاع الأسعار التي أسفرت بدورها عن حدوث المجاعات وانتشار الوفيات؛ إلا أن ذلك كله لا يمكن إرجاعه إلى الدوافع أو البواعث التي تقابلها الأسباب، بل إننا بصدد أوضاع محددة اضطرت المعاصرين إلى التكيف معها. (Prost, 1996 : 156)

وكرد فعل لمنهج التأويل، وتحت تأثير الأفكار الاجتماعية التي أطلقها العالم الفرنسي دوركايم Durkheim، ظهر تيار آخر في مجال الكتابة التاريخية يستند إلى عدد من الخطوات الأكثر صرامة.

٢. تاريخ الإنسان دون الإنسان ذاته: منهج الشرح

في إحدى المقالات الشهيرة التي صدرت عام ١٩٠٣ تحت عنوان "المنهج التاريخي وعلم الاجتماع"، عمد فرانسوا سيميان François Simiand إلى دحض منهج التأويل الذي يدفع المؤرخ نحو "تخيل أفعال السابقين وأفكارهم ودوافعهم انطلاقاً من أفعال الأشخاص الذين يعايشهم في الوقت الراهن وأفكارهم ودوافعهم". كما انتقد اللجوء إلى استخدام تحليل نفسي مبهم يفتقر إلى الإعداد الجيد، بل انتقد بصفة خاصة "التطبيق غير الواعي لقواعد القياس التي تم التسليم بصحتها دون نقاش مسبق". ويدعو المؤرخين إلى التحول عن "مأربهم" المعتاد الذي يتمثل في الحدث الأوحد والشخصية العظيمة والحالة المتفردة، من أجل دراسة عدد من الأنظمة والظواهر المتكررة التي تمكنهم من تقديم تفسيرات، بل استخلاص عدد من القوانين الاجتماعية. وهذا التصور المستوحى من العلوم الطبيعية يستلزم وجود استراتيجية بحثية دقيقة تتمثل في استخدام النموذج الاستنتاجي في عملية الشرح:

يمكن شرح الحدث في "ظل" قانون ما، وأسبابه هي المقدمات التي سبقت حدوثه. وتتمثل الفكرة الرئيسة هنا في الانتظام المطرد؛ أي إنه حينما يقع الحدث "أ" في مكان وزمان محددين، لابد أن يقع الحدث "ب" في المكان والزمان اللذين لهما صلة بموقع الحدث الأول وزمانه. (Ricœur, 1983 : 162)

إن الشروع في "شرح" الحدث التاريخي من منظور علمي يستلزم البدء بفرضية تكرار الحدث وإمكانية التنبؤ بحدوثه، وهي فرضية التاريخ "الاجتماعي" الذي يعد بمثابة أحد تيارات الكتابة التاريخية التي تبلورت بشدة من خلال الأبحاث الأولى التي أعدها لابروس خلال

الثلاثينيات وبرامج البحث التي أجراها بالتعاون مع برودل خلال الخمسينيات. ويعتقد هؤلاء المؤرخون أن عملية الشرح التاريخي يمكن أن تسير على نهج شرح الحدث الفيزيائي، مثل انكسار أحد الخزانات بفعل تجمد المياه داخله، أو حدوث انهيار جليدي، أو ثورة أحد البراكين. ويعمد لابروس من هذا المنطلق إلى شرح "كيفية اندلاع الثورات" على سبيل المثال. ويتضمن هذا النص الذي يقع في قرابة عشرين صفحة تدوين محاضرة ألقاها في إطار المؤتمر التاريخي للاحتفال بمرور مائة عام على ثورة عام ١٨٤٨؛ حيث عقد لابروس مقارنة بين ثلاثة أحداث تاريخية تمثلت في ثلاث ثورات فرنسية اندلعت في الأعوام الآتية: ١٧٨٩– ١٨٣٠– ١٨٤٨. فقد افترض أن ثورة ١٨٤٨ ليست سوى "تكرار" لثورتي عام ١٧٨٩ وعام ١٨٣٠. وإذا ما اقتصرنا على تناول أيام الثورة ذاتها، "فإننا لسنا بصدد البحث عن الأسباب البعيدة التي أدت إلى اندلاع هذه الثورات الثلاث، بل قد يسعنا أن نقول إننا بصدد البحث في مسيرة أيام الثورة والأساليب المتبعة خلالها؛ أي إننا بصدد الثورة ذاتها" (3 : 1948). ثم يستطرد قائلاً إنه سيعمل جاهداً من أجل توضيح التشابه الهيكلي بين هذه الثورات، وشرح ظاهرة "الثورة" بأسلوب سببي. ولا يعتقد لابروس أن الحدث التاريخي يتمثل في الفعل الذي أقدم عليه هذا الشخص أو ذاك، أو في المواجهة التي تصدت لها إحدى الجماعات الاجتماعية، لكنه يتمثل بالأحرى في "الحادثة" التي قطعت سير الأحداث المعتادة، مثل ارتفاع الأسعار بشكل هائل، أو تلف أحد المحاصيل. وقد أعلن على الفور خلال الجزء الأول من محاضرته أنه لا يعطي أهمية كبيرة للعنصر البشري أو العامل النفسي؛ لأن "الثورات تقع رغم أنف الثوار" (1 : 1948). وفي إطار الشرح السببي الذي تبناه، عرض لابروس ما أطلق عليه اسم "الانفجار" الثوري نتيجة حتمية لقوى لا تُقهر:

(١) من أجل القيام بثورةٍ ما مثل ثورات ١٧٨٩ و١٨٣٠ و١٨٤٨، وتحريك حشود الشعب دون صدور أوامر محددة من قبل أكبر الأحزاب الشعبية، ودون حدوث الصدمة الشديدة التي خلفتها الهزيمة أو الاحتلال الذي كنا نتحدث عنه الآن، فإن القوة الوحيدة الفاعلة تتمثل في حدث له أيضاً تأثير شامل، والحدث الاقتصادي هو المثال الأكثر بروزاً من بين هذه الأحداث(Labrousse, 1948 : 3).

وهكذا، يتم الإفصاح عن السلسلة السببية، حيث يُعد الواقع الاقتصادي سبباً في انفجار الثورات. ولنتابع منهج الاستدلال العقلي الذي عرضه لابروس:

(٢) يعد الضغط الاقتصادي بمثابة أول أسباب الانفجار الثوري. فقد شهدت الأعوام التي اندلعت خلالها الثورات (١٧٨٩– ١٨٣٠– ١٨٤٨) حالة من الضغط الاقتصادي الذي نجم عن عدد من العوامل التي تختلف في بعض جوانبها، وإن كانت تتقارب في مجملها، بل إن تاريخ الصعوبات الاقتصادية التي واجهناها خلال هذه الأعوام الثلاثة يتكرر بشكل يثير الدهشة (ibid : 4).

ويرجع لابروس سبب هذا الضغط الاقتصادي إلى وقوع "حادثة طبيعية" تمثلت في تلف صيل: "إننا نبحث عن الحدث الطبيعي والعفوي الذي يقبع وراء حدوث هذه الصعوبات ية دون تدخل الإنسان بأي شكل من الأشكال" (ibid : 4). ويوضح لابروس أن الأزمة ? لابد أن تؤدي حتماً إلى حدوث أزمة اجتماعية (تلف المحاصيل ←ارتفاع الأسعار ، الشرائية ← انهيار الصناعات وانتشار البطالة)، وينتهي الأمر بحدوث أزمة

(٣) ستسفر الأزمة السياسية عن وجود هدف سياسي للأزمة الاجتماعية، وستؤدي الأزمة الاقتصادية إلى حشد قوة اجتماعية هائلة حول الأزمة السياسية.

وهكذا، يمكننا تصور طبيعة هذا الخليط المتفجر؛ حيث نشهد في الحالات الثلاث التقاء إحدى الهزات الاقتصادية العنيفة وعدد من الصعوبات السياسية؛ أي التقاء أزمة اقتصادية كبيرة وأخرى سياسية، بل إن الأزمة السياسية تعكس إلى حد كبير العداءات الاجتماعية السابقة، وتؤدي إلى حدوث انقسام شديد في قلب الطبقة أو الطبقات الحاكمة (ibid : 19).

وفي إطار تناول هذا "الخليط المتفجر"، يعيد لابروس بناء الواقع التاريخي مستخدماً أسلوب العلوم الطبيعية؛ حيث تؤدي الأسباب نفسها إلى حدوث النتائج ذاتها، كما هو الحال عند التقاء الحمض والأكسيد الذي ينتج عنه أحد الأملاح، أو التقاء الماء والحرارة[٧]. إننا هنا بصدد وجود قوتين هما: الضغط الاقتصادي، والضغط السياسي اللذين يعدان بمثابة اثنين من مكونات تلك الوصفة التي يعرضها لابروس من أجل القيام بثورة ما. لكنه أضاف الملاحظة الآتية:

(٤) إلا أن كل ذلك لا يكفي من أجل حدوث الانفجار! لأنه كي تتمكن هاتان القوتان مجتمعتين- أي الضغط الاقتصادي والضغط السياسي- من تفجير الأوضاع، لابد من وجود أحد أشكال المقاومة التي تمثلت في:

- الإعداد لحركة القمع الملكية عام ١٧٨٩
- إصدار عدد من التشريعات عام ١٨٣٠
- رفض إعطاء وعود بشأن عملية الإصلاح وحظر المطالبة به عام ١٨٤٨ (ibid : 19)

والقانون الخاص باندلاع ثورةٍ ما يستلزم بالتالي وجود خليط متفجر يتكون من الضغط الاقتصادي والسياسي من جهة، والمُفجِّر الذي يتمثل في مقاومة الجهات الحكومية من جهة أخرى. وخاطر لابروس بدخول نطاق التاريخ المقارن- متسلحاً بهذا القانون- من أجل شرح "الثورات" الفرنسية و"التحولات" الإنجليزية:

(٥) أيها السير تشارلز ويبستر! نجحت حكوماتكم في تجنب هذا النوع من "المقاومة" في أحلك المواقف! وما نقصده هو الأسلوب المدهش الذي اتبعه حزب المحافظين الإنجليزي العريق من أجل نزع فتيل الثورة. وتتبنى إنجلترا سياسة المرونة التي تتمثل في الاستسلام مؤقتاً للحيلولة دون تفجُّر الأوضاع، على خلاف حكومة فرنسا التي تقاوم الضغوط وهي متشبثة بموقفها، وينتهي الأمر بحدوث انفجار هائل. ولسنا هنا بصدد شرح الاختلافات بين التحولات الإنجليزية وثوراتنا الفرنسية؛ لأن هذا الأمر لا يمثل سوى جانب واحد من هذه المسألة، بل قد يسعنا القول إنه يكاد يكون جانباً ثانوياً صغناه بشكل مرتجل وأدبي. إلا أننا نتساءل إذا ما كان هذا الوضع لا يفسر إلى حد ما الطابع المتفجر الذي يغلب على تاريخنا الداخلي، ويعكس الغياب الملحوظ لهذه السمة على مدار القرون الأخيرة من تاريخكم. (ibid : 19)

إن الشرح السببي الذي ساقه لابروس للظاهرة الثورية قد أثار- عقب إلقاء المحاضرة- عدداً من ردود الأفعال المتشككة، على الرغم من حالة الترحاب العام التي قوبل بها. وكان رد فعل أحد المؤرخين الموجودين في هذا الجمع شديد الصرامة إزاء عرض هذا التسلسل السببي البحت

للوقائع المختلفة؛ فقد شكك في حجم الأهمية التي أعطاها لابروس للعوامل التي وصفها، وسأله إن لم يكن الأمر يستحق تكبد عناء إدخال العنصر البشري بواسطة "استرجاع عقلية الأشخاص الذين اضطلعوا بدور ما" (ibid : 26). وأجاب لابروس بكل حزم قائلاً: "إنني لا أزعم تفسير أسباب الثورات الفرنسية، لكنني عمدت فحسب إلى شرح آليات الثورة إبان حدوثها" (ibid : 26).

وبعد أن عرض لنا لابروس أحد أشكال النصوص التي تخلو من أي طابع سردي، لنختتم حديثنا بالتعرف على أسباب عدم إمكانية اختفاء السرد من كتابات المؤرخين، وأسباب العودة مجدداً إلى التاريخ السردي خلال العقود الأخيرة، وضرورة التعرف على وظيفة السرد في هذا الصدد.

الخاتمة: وظيفة السرد

الأسلوب السردي لا غنى عنه في أحاديثنا وكتاباتنا...إنه يحيط بالواقع والخيال، في إطار التفاعل الشفهي اليومي، والأدب، والصحافة...الخ. إنه يوجد دوماً باعتباره الإطار النصي الذي يتم من خلاله تحديد معنى الفعل البشري وفقاً للغويين والأدباء والفلاسفة وعلماء النفس على حد سواء. ولنذكر على سبيل المثال جازانيجا Gazzaniga (١٩٩٤) المتخصص في العلوم العصبية، والذي افترض أنه يوجد في مخ الإنسان وحدة خاصة بتحديد معنى الأحداث التي عايشها الأفراد من خلال وضعها في إطار قصصي تترابط فيه هذه الأحداث بواسطة عدد من العلاقات السببية المؤثرة. والقدرة على السرد تضطلع بدور مهم في تكوين الإنسان؛ لذا نلاحظ وجود عدد من الانحرافات الخطيرة في شخصية المرضى الذين يعانون من "فقدان القدرة السردية"[٣] Dysnarrativity. ويعتقد الفيلسوف بول ريكور أن السرد يعتبر من الأدوات المعرفية، حيث يَعُد عملية ربط الأحداث بمثابة إحدى العمليات "التركيبية"؛ لأنها تتمثل في تجميع مجموعة من الأحداث المختلطة من أجل تشكيل كيان متماسك. والسرد هو بالتالي أفضل الأساليب التي تتيح الوقوف على الأفعال الإنسانية عبر الزمن.

وبصدد عملية التخيُّل، هناك أسلوب للسرد يُعرف باسم السرد السببي "الإتيولوجي" الذي يهدف إلى تفسير ما يبدو غامضاً في عالمنا. ويتسم هذا النوع من السرد بالجمع بين عالمين منفصلين هما: العالم الواقعي الذي يشهد وجود أحد الألغاز التي يجب حلها من جهة (تبدأ الحكايات السببية "الإتيولوجية" في الغالب بسؤال مُثبت في "الزمان والمكان الحاليين": لماذا تتسم مياه البحر بالملوحة؟ أو لماذا جلد النمر مُخَطط؟)، وعالم خيالي يتضمن الإجابة؛ أى حل هذا اللغز. ومن ذلك على سبيل المثال الأسطورة التي تعد أحد الأنواع السردية المتفردة، وتتمثل وظيفتها في صياغة الإجابات اللازمة عن التساؤلات الأساسية التي يطرحها الإنسان بشأن أصوله وأصل العالم الذي يعيش فيه:

> اختلق الإنسان قصة تساعد على إرضاء فضوله؛ لأنه عجز عن الوقوف على أصل الجنس البشري. ومن ذلك على سبيل المثال أسطورة آدم وحواء في الإنجيل، وأسطورة دوكاليون وبيرا عند اليونانيين. وكان يتم شرح حركة الشمس في الفضاء المتوهج بوجود عربة متحركة ذات مقبض ذهبي وعجلات نارية، ويقودها بخطى ثابتة إله مُشع، وهذه هي أسطورة سوريا في عالم التصوف الهندي، وأسطورة فويبوس-أبوللو لدى القدماء. وكل ما يعجز الإنسان عن فهمه ولا يكون له أي تفسير علمي، يجد له حلاً مؤقتاً أو خيالياً في سرد الأساطير. (Demougin 1985 : 777)

وختاماً.. يبدو أن استخدام أسلوب السرد يتضمن القدرة على تحقيق الوحدة، وصياغة "كل" متكامل على حد قول أرسطو؛ أي صياغة مجموعة من الوقائع التي تتصل بعدد من الروابط الزمنية والسببية. وقبل ظهور السرد، تبدو مجموعة الأحداث وكأنها لغز غير مفهوم على الإطلاق، بل لغز فوضوي للغاية. وقد قال سارتر: "هذه هي الحياة" (١٩٤٨)، و"أضاف قائلاً: "ولكن حينما نقص الحياة، فإن الأمر برمته يختلف" (١٩٣٨:٦٥). والاختلاف يكمن في التماسك الذي تطرحه عملية السرد، والذي يعد أحد العناصر المهمة؛ فإنه يعكس سبب عدم إمكانية تفادي السرد في كتابات المؤرخ الذي يهدف إلى توضيح الأحداث الماضية المعقدة. وقد أوضح خورخي سمبرون Jorge Semprun مدى أهمية هذا التماسك في كتابه *الكتابة أو الحياة* *L'écriture ou la vie*، حيث تعرض لشهادة أحد الناجين من أحد المعتقلات الألمانية، وساق التعليق الآتي:

كان مشوشاً، ومضطرباً، ويسهب بشدة في ذكر التفاصيل، ولم يكن يمتلك أية رؤية شاملة [...]. لقد أدلى بشهادته على الأحداث كما وقعت دون ترتيب، حيث ساق عدداً من الصور المختلطة. كان يبوح بالوقائع والانطباعات والتعليقات العقيمة.
كنت أكظم غيظي، ولا أملك مقاطعته من أجل طرح الأسئلة، أو إجباره على ترتيب هذا الفيض من الأقوال المضطربة غير المفهومة بغية توضيح معناها. [...] كانت مصداقيته غير واقعية، إلا أنني لم أنبس ببنت شفة، ولم يكن بوسعي مساعدته على ترتيب ذكرياته؛ لأنه لم يكن من المفترض أن يعرف حقيقة مروري بتجربة الاعتقال ذاتها.
(Semprun 1994 : 310)

كان مُحدِّث سمبرون ينقل أحداثاً حقيقية دون أن يعرضها في نسق مترابط؛ فقد ساق الوقائع بشكل "مختلط". وقد عدَّ سمبرون غياب القدرة على السرد أشد النقائص ضراوة. فإنه لم يجمع الأحداث في هيكل سردي؛ مما جعلها تبدو غير متماسكة، وصارت بالآتي غير واقعية. إلا أننا نعلم جيداً أن الحقيقة قد تكون أحياناً غير واقعية، ومثل هذا المثال يجعلنا ندرك مدى صعوبة عمل المؤرخ الذي يتعين عليه قول الحق في إطار شكل كتابي يجعل الحقائق مفهومة وواقعية.
وهكذا، يتعين على المؤرخ اللجوء إلى فن السرد؛ أي القليل من التصنع، بل القليل من التخيُّل. وفي هذا الصدد، فإننا نتفق مع جيروم برونير الذي أكد أن "جميع أنواع السرد بما فيها السرد التخيُّلي تعد بمثابة إطار لعرض ما يتضمنه العالم الحقيقي، ويمنحه بالتالي قدراً من الواقعية". (Bruner 2002 : 12)

الهوامش:

(١) يعتقد أنصار الاستدلال بواسطة القياس أن النقل يمكن أن يعمل في الاتجاهين، أي أنه يمكن الانتفاع بشروح الماضي في تفسير الحاضر.

(٢) إن هذه الفكرة الخاصة بكون العلم يستطيع دوماً التنبؤ بمجريات الأحداث على نحو دقيق تنبثق عن الفلسفة العلمية التي انتشرت في نهاية القرن التاسع عشر. لكننا ندرك حالياً مدى تعقيد الواقع، حيث فقدت القوانين العلمية طابعها الحتمي البحت، وصارت قوانين احتمالية.

(٣) "فقدان القدرة السردية" هي خلل عصبي يؤثر على قدرة الإنسان على سرد الأحداث أو فهم القصص.

ببليوجرافيا

Aron, Raymond 1938 – *Introduction à la philosophie de l'histoire* – Paris : Gallimard.
Bruner, Jérome 2002 – *Pourquoi nous racontons-nous des histoires ?* – Paris : Retz.

Demougin, Jacques (éd.) 1985 – Dictionnaire historique, thématique et technique des littératures. Littératures françaises et étrangères, anciennes et modernes – Paris, Larousse.

Dilthey, Wilhelm 1991 – « Introduction aux sciences de l'esprit ». *In* : *Œuvres*, vol. 1 – Paris : Cerf. Éd. orig. 1883.

Dunoyer, Charles-Marie 1849 – *La Révolution du 24 février* – Paris : Guillaumin et C^ie^.

Gazzaniga, Michael S. 1994 – *Nature's Mind* – Harmondsworth : Penguin Books.

Labrousse, Ernest 1948 – « 1848-1830-1789. Comment naissent les révolutions ». *In* : *Actes du congrès historique du centenaire de la révolution de 1848* – Paris : PUF.

Marrou, Henri-Irénée 1954 – *De la connaissance historique* – Paris : Le Seuil.

Prost, Antoine 1996 – *Douze leçons sur l'histoire* – Paris : Le Seuil.

Ricœur, Paul 1983 – *Temps et récit*, tome 1 – Paris : Le Seuil.

– 1986 – *Du texte à l'action, Essais d'herméneutique* II – Paris : Le Seuil.

Sartre, Jean-Paul 1948 – *Qu'est-ce que la littérature ?* – Paris : Gallimard.

Semprun, Jorge 1994 – *L'Écriture ou la vie* – Paris : Gallimard.

Simiand, François 1903 – « Méthode historique et sciences sociales », *In* : *Annales, économies, sociétés, civilisations* n° 15, 1960.